الإنسان الكامل عند الجيلى

للاستاذ عبد اللطيف محمد القيسى

(٢)

أشرت فى العدد الماضى إلى نظرية الإنسان الكامل عند الصوفية ، وذكرت ما يعنيه الصوفية بهذا الاصطلاح ، ونوهت بتطور هذه النظرية ، وكيف كان رأى فريق من الباحثين حولها . ثم ذكرت أننى سأعرض لوجهتين من النظر لنرى فيهما صدق ما ذهب إليه الباحثون حول هذه النظرية ، أو مبلغ الخطل فى الرأى الذى رأوه .

فعبد الكريم الجيلى المتوفى ١٤١٧ م صاحب كتاب « الإنسان الكامل » ، يذهب فى نظريته عن الإنسان الكامل إلى أن أفراد النوع الإنسانى متطابقون فى الخصائص ، فهم صورة واحدة ، لا يفرق الواحد عن الآخر منهم إلا فروق عرضية ، هذا من وجه ، أما الوجه الآخر فهو يرى أن ثمة مثلا اختلاف من بعض الوجوه بين أناس وأناس ، إذ أن ثمة أفراد قد بلغ بهم إرهاف الحس ، وجلاء النفس مبلغاً تبدو معه الأشياء على صفحة هذه النفس مبلغ الفعل والظهور ؛ وفريق آخر من الناس قد أظلمت شعلة نفوسهم ، وخبت أنوار قلوبهم ، فلم يعد لهم مواهب ومدارك إلا بالقوة . والفريق الأول ، ممن صفت نفسه ، ودقت روحه ، وانكشفت له عوالم الغيب وتوصل إلى المعرفة اليقينية ، إنما هم أفراد الإنسان الكامل من الأنبياء والأولياء الكمل ، والذين يعتبر أكملهم على الإطلاق النبى محمد عليه الصلاة والسلام وما عداه فهم منتسبون إليه ، لاحقون به .

وحين يصف لنا الجيلى حقيقة الإنسان الكامل ، فإنما هو يصف لنا ما أطلق عليه الصوفية اسم « الحقيقة المحمدية » الأزلية ، التى كانت أول الخلق ،

ثم عنها صدرت سائر الأكوان والتعينات ، ومن جملة تعيناتها الأنبياء والأولياء الكاملين .

فهذا الإنسان الكامل على هذا المعنى ، إنما هو القطب الذى تدور عليه أفلاك الوجود ، ومركز الكائنات ، وإنسان عين الوجود ، وهو على هذا ذو مكانة سامية فى عالمى الأمر والخلق ، فله قدرة تصرف فى الأول ، وهيمنة وحفظ فى الثانى .

والإنسان الكامل حقيقة واحدة أزلية ، وهى ما زالت كذلك إلى الأبد . وما تعدد أفراده على مد العصور إلا مظاهر وتعينات لتلك الحقيقة المحمدية الأزلية ، إذ أن لهذه الحقيقة قدرة على التصور فى كل صورة ، وحسب مقتضيات العصر والزمان . والجيلى لا يعنى بهذا قولا بالتناسخ ، أو أخذا بمذهبه ، وإنما لهذه الروح قدرة خاصة على القصور والظهور بشتى الصور العديدة . وهى لا تهدف بذلك إلا حمل رسالة شريفة ، تسعى لإعلائها ... تلك الرسالة إنما هى إصلاح الناس ، وتقويم ميلانهم ، وكأن الولى الكامل حين ينهض بهذا العمل إنما يتابع عمل النبى المرسل ، فيخلفه فى نبوته . ويمكن أن يعد الولى الكامل بهذا المعنى خليفة النبى بعد مماته فى الظاهر ، والحقيقة المحمدية إنما جوهره الباطن . وهذه هى مهمة الإنسان الكامل حين يواجه الناس بحقيقته ، وتلك غايته حين يسعى لحفظ العالم .

أما الإنسان الكامل من حيث مركزه فى الوجود ، فإنما هو يقابل بحقيقته حقائق الموجودات فى العالم العلوى والسفلى على حد سواء ، إذ هو بلطافة روحه يقابل الحقائق العلوية ، وهو بكثافة جسده يقابل الحقائق السفلية . والعالم على هذا إنما هو صورة له ، وثمة تقابل بين الصورة ، أى العالم ، وبين الإنسان الكامل .

وهذا الأخير ، أى الانسان الكامل ، هو أيضا صورة الحق ، التى خلقها الله على صورته ، كما جاء فى الأثر من أن آدم قد خلق على صورة الرحمن . وبناء على هذا فإن ثمة تقابل بين صفات الحق وصفات الإنسان الكامل وبين أنيته وأنيته ، وهويته وهويته وبين كل ما للحق من مقتضيات الكمال . فالانسان الكامل إنما هو كذلك لأنه صورة الحق ، وهو بهذا قد حاز الكمالات الالهية وسائر التجليات . ومن هنا كانت لذلك الانسان تلك المكانة والمرتبة السامية بين الموجودات .

وإن كان الأمر ما قد ذكرنا ، فقد صح عند الجيلى أن الانسان الكامل مثاله للحق مثال المرآة التى ترى فيها ذاته لذاته من وجه ، وللخلق من وجه آخر . ويعتبر الانسان الكامل على هذا مناط الأمانة الالهية ، التى أبت أن تحملها السموات والأرض والجبال غير أن الانسان حين يجهل ذلك يكون قد ظلم نفسه ، إذ يضعها فى غير موضعها ، وينزلها عن مكانتها السامية الفريدة بين الوجودات .

ويقسم الجيلى صفات الانسان الكامل إلى قسمين فمنها صفات كالحياة والعلم والقدرة والارادة ، وصفات أخرى كالأزلية والأبدية والأولية والآخرية ... وهو فى علمه مثلا إنما يتم له هذا العلم خلواً عن التعلق بالرسوم والأشكال ، بل يتم له هذا العلم عن طريق الكشف اليقين ، فيشهد من أسرار الكون مادق منها ، ويعاين ما خفى من أمور الوجود . وهو فى علمه وكشفه بعيد عن الخداع والضلال ، إذ ليس لخواطر النفس أو خداع الحواس أثر أو تدخل ، فهو يحمل فى باطنه قدرة نفسية تمنع عنه الخواطر ، كما أنه ليس بحاجة إلى آلة من آلات الحس ، كى يتحقق بالعلم والمعرفة . ومن هنا كان علما لا شك فيه ، ويقينا لا شبهة عليه . وهكذا فى سائر صفاته ، لقد أسلم له كل شىء فى الكون ، وأصبح كل ما فيه رهين تصرفه وهيمنته وهو يتدرج فى هذا الطريق بين برازخ ومقامات ، حتى يصل فى النهاية مقام الختام .

***

يتضح لنا من هذا العرض لنظرية الجيلى فى الانسان الكامل ، أنها لا تختلف كثيرا عن تلك النظرية عند محيى الدين بن عربى . إذ أن كليهما يطلق لفظ الانسان الكامل على هذين المعنيين : الحقيقة المحمدية الأزلية المطلقة التى كان عنها صدور المخلوقات ، ومفيضة العلم فى قلب كل صوفى ، ومنبع النبوات وجوهر الرسل والأنبياء . ثم الانسان الكامل الذى تحقق بالتجليات الالهية ، وبلغ مرتبة سامية من حيث جلاء المعدن ، وصفاء الروح فأدرك وحدة الذات الالهية الكامنة فيه ، وحمل أمانة ذلك ، وأصبح متخلقا بأخلاق الله كما ذكر النبى عليه الصلاة والسلام .

فذلك الانسان إذن هو صورة الرحمن ، وهو من أجل ذلك استحق مرتبة الخلافة

والنيابة عن الله فى الأرض ، وحين يكون على وعى بهذا ، ومتحققا بما وعاه يكون قد بلغ مرتبة الكمال الانسانى والسمو الروحى . وهو كمال قد خرج عن درجة القوة ، وأصبح كمالا بالفعل ، ولم يعد ذلك الإستعداد العام فقط . وهذا ما يميز الانسان الكامل عن غيره من أفراد النوع الانسانى ، إذ أن هؤلاء هم كاملون بالقوة فقط ولم يصلوا بعد إلى مرتبة الكمال الفعلى .

وحتى يخرج الانسان العادى من رتبة الكمال بالقوة إلى درجة الكمال بالفعل فإنما عليه أن يعبر برازخ ثلاث يتحقق له بعدها مقام الكمال . وهو فى البرزخ الأول : يتخلى عن متعلقات ذاته ، ويفنى عن رسومها وصفاتها ، ويقبل على التحقق بالأسماء والصفات الالهية ، وحين يتجلى الله على عبد من عباده باسم أو صفة ، إنما يمحى تحت ذلك التجلى كل ما للعبد من أسماء وما يتصف به من صفات ، ويثبت له هذا التجلى بذلك الاسم أو تلك الصفة .

أما البرزخ الثانى : فهو برزخ التوسط بين الرقائق الانسانية والحقائق الرحمانية وهنا يتم للانسان علم سائر الممكنات ، والاطلاع على ما شاء من أمور الغيب . وفى البرزخ الثالث : تتم للعبد معرفة الحكمة القائمة وراء الأمور القدرية ، ويمكنه عن طريق تلك الحكمة أن يقوم بخارق العادات حتى تصبح له هذه عادة فى طبعه فيؤذن له بعد ذلك فى إبراز هذه القدرة فى ظاهر الأكوان ، وهو حين يتمكن من ذلك ، ويصبح له من الثبات والاستقباب والرسوخ يشرف على مقام الختام .

ويتضح لنا من هذا أن سبيل الكمال هو مفتح الأبواب أمام السالكين ، ولن يصل إليه إلا من تجرد وتحقق ، وأفنى نفسه عن علائقها ، وأخلص قلبه لربه وبارئه فالانسان الكامل على هذا — حسب نظرية الجيلى — إنما هو إنسان صوفى ! ! .

وهذه النظرية عند الجيلى إنما تأتى متكاملة مع مذهبه فى وحدة الوجود ، فهو يذهب إلى أن الحقيقة الوجودية واحدة ، وما الخلق إلا جزء مكمل للحق بمثابة الصفات التى تقوم بالذات . فثمة تناظر بين الله والعالم ، أو كما يقول : الصفات عين الذات ولا شىء أزيد منها .

وهذا العالم من وجه هو صورة الانسان الكامل ، إذن فثمة تقابل بينهما فى الخصائص والسمات ، والانسان الكامل هو صورة الرحمن التى خلقها مرآة لذاته كى ترى فيها صفاته ، ويعتمد الجيلى كغيره من الصوفية على هذا الحديث القدسى « كنت كنزا مخفياً فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق فبه عرفونى » فهناك تقابل أو تناظر بين الحق والانسان الكامل والعالم بناء على هذا . ويعتبر الانسان الكامل وسطا بين طرفى الحق والخلق ، فهو جامع للصفات الحقية والخصائص الخلقية ، وعلى هذا يكون الانسان الكامل ملتقى صفات الكمال والنقص ، وصفات الايجاب والسلب . . . ؟

« يتبع »